الفصل الأول
القرآن نور ودستور

● « القرآن نور ودستور » هذا عنوان المحاضرة التى ألقاها الداعية الإسلامى الفقيه الدكتور يوسف القرضاوى فى الحفل الختامى لجائزة دبى الدولية للقرآن الكريم فى دورتها الثانية للعام الهجرى (١٤١٩)، – وقد أكد فيها – كما روى محرر مجلة (منار الإسلام) الغراء « أن القرآن الكريم هو النور الذى تهتدى به العقول والقلوب، وهو الدستور الذى ينظم حياة الجماعات والشعوب وهو دستور حياة الأمة الإسلامية، وأول ما يميز هذه الشمولية (إضافة إلى اليسر والإبانة) أن القرآن دستور خالد، ليس لقرن أو قرنين بل هو دستور دائم للأمة كلها ولا مبدل لـه »[١].

– وليس هناك دستور دائم إلى يوم القيامة إلا القرآن الكريم؛ لاشتماله على ما يكفل الاستقامة والاستقرار والسعادة للفرد والجماعة والبشر جميعًا لاعتبار مصدره الربانى المحيط بطبيعة الإنسان وحاجات الاجتماع البشرى، ولأنه ليس فقط مشتملاً على ما تتضمنه الدساتير البشرية من قواعد تنظم الحياة فى مجتمع محدود، وإنما هو فضلاً عن ذلك كتاب هداية ونور يبدد ظلمات الحياة ومنهاج تربية وتهذيب وارتقاء فى مدارج الجمال والكمال الإنسانى نحو الآفاق الحيوية الأسمى.

– فالقرآن الكريم كتاب منزل من لدن حكيم خبير، وهو أرقى ما أوحى به الله تعالى لأحد من رسله الكرام، وهو خاتم الكتب السماوية وحجتها من الله عليها، وهو آخر كلام الله تعالى لعباده المصطفين الأخيار؛ ولذا جاء منهاجًا شاملاً جميع ما تحتاج إليه حياة الإنسان فى مختلف جوانبها وأحوالها المادية والنفسية ملبيًا الحاجات التى تلزم الاجتماع الإنسانى على المستوى الفردى أو الاجتماعى

---

(١) مجلة (منار الإسلام) الظبيانية عدد (شوال ١٤١٩ هـ – فبراير ١٩٩٩ م).

أو الأممى، ليضمن بذلك عمران الكون وكمال الحياة الإنسانية. يقول تعالى: ﴿ **إِنَّ هذا الْقُرآن يهدي لِلَّتي هي أَقْومُ ويُبشرُ الْمُؤْمنين الَّذين يعْملُون الصَّالحات أَن لَهُمْ أَجْرًا كَبيرًا * وأَنَّ الَّذين لا يُؤْمنُونَ بالآخرَة أَعْتَدْنَا لَهُمْ عذابًا أَليمًا** ﴾ [الإسراء: ٩، ١٠]، وفى الهدى النبوى فيما يرويه الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتن، فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله. فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، منْ تركه من جبار قصمه الله، ومنْ ابتغى الهُدى فى غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم والصراط المستقيم، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق من كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه. هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: «إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به» من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم» (رواه الترمذى والدارمى).

- ونحن - المسلمين - مأمورون بالاعتصام بالقرآن والاحتكام إليه والالتفات حول رايته لا سيما إذا نزلت الخطوب واستبيحت بيضة الإسلام واستضعف المسلمون وانتقصت حقوقهم وديارهم وأعراضهم - كما هو حاصل فى زمننا الحالى - قال تعالى: ﴿ **واعْتَصمُوا بحَبْل اللَّه جميعا ولا تفرَّقُوا واذْكُرُوا نعْمت اللَّه عَلَيْكُمْ إذْ كُنتُمْ أَعْداءً فَأَلَّف بيْنَ قُلُوبكُمْ فأَصْبحْتُم بنعْمته إخْوانًا وكُنتُم علىٰ شفَا حُفْرةٍ منَ النَّار فأَنقذكُم منْها كذلك يُبيّنُ اللَّهُ لَكُم آياته لعَلَّكُمْ تهْتدُون** ﴾ [آل عمران: ١٠٣]

● ولقد أمرنا الله - سبحانه وتعالى - بالإقبال على كتابه الكريم ومأدبته العامرة بثمار الحكم وأنوار الهداية تعلماً وتدبراً وتعبداً؛ لتستقيم أمورنا وتطيب حياتنا، فجعل - سبحانه - الحياة الحقيقية هى حياة الإيمان والالتزام بهدي القرآن قال تعالى: ﴿ **يا أَيُّها الَّذين آمنُوا استجيبُوا للَّه وللرَّسُول إذا دعاكُمْ لما يُحْييكُم**

﴿ واعْلَمُوا أَنَّ اللَّه يحُولُ بيْن الْمرْء وقَلْبه وَأَنَّهُ إلَيْه تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤] وقال تعالى: ﴿ أَفَلا يتدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوب أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤] وقال سبحانه: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ منْ عنْد غَيْر اللَّه لَوَجَدُوا فيه اخْتلافًا كَثيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

● وقد أكب المسلمون على دراسة القرآن وعلومه واستخراج درره ولآلئه فى مختلف العلوم والفنون والآداب، وكان من الطَّبَعىّ أن يحظى الجانب التشريعى والقانونى بنصيب وافر من تلك الدراسات؛ لما فى الشريعة الإسلامية بآفاقها كما عرض لها القرآن الكريم من ثراء وامتياز. مما يؤكد الإعجاز التشريعى للقرآن الكريم، وقد شهدت بذلك المؤتمرات القانونية الدولية، على لسان فقهاء القانون الدولى المقارن الأعلام.

– ودَرَجَتْ الحياة الحديثة على وضع الدساتير المتضمنة للقواعد والأسس القانونية التى تنظم الحياة فى مختلف مستوياتها وجوانبها فى نطاق الدولة الحديثة، وقد عُنىَ المسلمون بذلك لتفاعلهم مع النهضة الأوربية الحديثة، ومن ثم شاعت كلمة (الدستور) فى الفقه السياسى والدستورى، وتتابعت الدراسات والمؤلفات من المفكرين والقانونيين المسلمين فى كتاباتهم عن الدستور.

– ولما بسط الاحتلال الأوربى نفوذه على معظم بلدان العالم الإسلامى شرقه وغربه حرص على فرض ثقافته وقوانينه وانتزاع الأسس والمبادئ الإسلامية فى مختلف ميادين الحياة فى البلدان الإسلامية؛ ليسهل عليه احتواؤها والسيطرة على مقدراتها وتقليم أظفارها والحيلولة دون وحدتها ونهضتها على أصول العقيدة الإسلامية وثقافتها، وكان البدءُ بالتعليم وانتقل بعده إلى الاقتصاد والسياسة والتشريع حتى صارت الشريعة الإسلامية غريبة فى بلادها، وصارت الكثير من التقاليد السياسية والقوانين والتشريعات فى الأوطان الإسلامية أوربية المصدر رومانية الأساس، الأمر الذى حفز دعاة النهضة والإصلاح – لا سيما بعد

رحيل الاحتلال العسكرى - عن ديار المسلمين معظمها - حفزهم للدعوة إلى الاحتكام إلى الشريعة الإسلامية والعودة إلى المبادئ والأسس الإسلامية فى مختلف مجالات الحياة وبخاصة فى مجال الإعلام والتعليم والاقتصاد والفنون والعلوم والقانون، ليتم لهم بذلك تحقيق الاستقلال التام فى مختلف نواحى الحياة عن الاحتلال وثقافته، مع التواصل والانفتاح على العالم لأخذ النافع من كل الحضارات والثقافات مما لا يتناقض وقيمنا الإسلامية الرفيعة وتقاليدنا العربية الصالحة.

- ومن تلك الدراسات كتاب مولانا أبى الأعلى المودودى (الدستور الإسلامى) ودراسات أخرى كثيرة فى هذا المجال قدمها فقهاء القانون الدستورى ومفكرو الإسلام فى العصر الحديث، ومن هذه الدراسات الجديرة بالاعتبار والاهتمام. مشروع الدستور الإسلامى الذى صدر عن الأزهر الشريف وقدمه إلى المكتبة العربية العالم الداعية الدكتور محمد سيد أحمد المسير أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر فى كتاب بعنوان (نحو دستور إسلامى - مشروع وضع مواده الأزهر الشريف).

● ولخروج هذا الكتاب إلى القارئ العربى قصة شيقة يرويها صاحبه الدكتور محمد سيد أحمد المسير بأسلوب شائق فيقول «لهذا الكتاب قصة مرت بمراحل ثلاث:

المرحلة الأولى أوصى المؤتمر الثامن لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف الذى انعقد بالقاهرة فى ذى القعدة سنة (١٣٩٧ هـ) الموافق أكتوبر سنة (١٩٧٧م) بأن يقوم الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية بصفة خاصة بوضع دستور إسلامى ليكون تحت طلب أية دولة تريد أن تأخذ بالشريعة الإسلامية منهاجا لحياتها، ويرى المؤتمر أن يؤخذ فى الاعتبار عند وضع هذا الدستور أن يعتمد على المبادئ المتفق عليها بين المذاهب الإسلامية كلما أمكن ذلك.

– وفعلا فقد تم إنجاز هذا المشروع بعد عام من التوصية، وطبعته الأمانة العامة لمجمع البحوث الإسلامية فى ذى القعدة سنة (١٣٩٨ هـ) الموافق أكتوبر سنة (١٩٨٧م) تمهيداً للعرض على المؤتمر التاسع للمجمع، ونشرته مجلة الأزهر فى عددها الصادر بتاريخ جمادى الأولى لسنة (١٣٩٩ هـ) الموافق أبريل (١٩٧٩ م) وقالت مجلة الأزهر إن الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود وضع اللمسات الأخيرة لهذا المشروع الذى يستمد أحكامه من مختلف المذاهب والآراء الفقهية وتغطى مواده احتياجات المسلمين كافة ومضت السنوات وبات المشروع نسياً منسيا (١).

– ويمضى بنا المؤلف الكبير إلى المرحلة الثانية من قصة ميلاد هذا الكتاب فيقول «المرحلة الثانية: بتاريخ ٢٨/٧/١٩٩١) نشر فى صحيفة (الأهرام المسائى) مقالاً بعنوان «المستشار سعيد العشماوى يضع دستوراً إسلامياً جديداً» وجاءنى أحد الصحفيين الشبان وهو الأستاذ محمود عبد الغفار، وناشدنى إبداء الرأى فى هذا الموضوع، فبدأت سلسلة من المقالات بعنوان «نحو دستور إسلامى جديد» وجاء المقال الأول ليؤكد أن المستشار العشماوى ليس مؤهلاً للحديث عن الإسلام، ثم جاء المقال الثانى ليحُيى مشروع الأزهر الشريف للدستور الإسلامى بعد ما يقرب من ثلاثة عشر عاماً.

وتوالت المقالات تقدم مواد الدستور الإسلامى وتعلق عليها بما يوضح الفكرة، ويسوق الشاهد ويُظهر الحكمة، ويُبرز خصائص ومميزات الشريعة الإسلامية ... واستمر نشر المقالات أسبوعياً تقريباً على مدى أربعة أشهر فى صحيفة (الأهرام المسائى)، وفجأة توقف النشر؛ لأن المسئولين فى الصحيفة تنبهوا إلى أننا لسنا فى حاجة إلى دستور إسلامى جديد، فمصرنا العزيزة مسلمة والحمد لله ، ودستورها إسلامى .. !!

---

(١) نحو دستور إسلامى ص ٣ .

هكـذا قـيـل لـى . . !! لكـن الرسـالة قـد وصلت . . !! وجـاوزت حـدود الوطن . . !! » [1].

ولكن كيف جاوزت الرسالة حدود الوطن، وكيف بلغ الله تعالى بقدرته الأذان بعدما أذن إبراهيم عليه السلام فى واد غير ذى زرع، ليبلُغَ الأذان أقصى الربع المسكون ؟!!!

هذا ما يقصُّه علينا الكاتب الأستاذ فيقول: « لقد حضر أحد المستشرقين من نيوز لاندا وهو مستر ويليام شبرد إلى كلية أصول الدين بالقاهرة، وكان على صلة بعميدها فضيلة الدكتور محمود حمدى زقزوق، وطلب نسخة من مشروع الأزهر للدستور الإسلامى !!

وقـمـت بتـسـليـمـه هذه النسـخـة (وأهديتـه كـتـابى) « مـحـاورة تطبـيق الشريعة »، وزارنى الأستاذ عبد الرسول الزرقاني رئيس تحرير جريدة (النور) سابقا وطلب منى نسـخـة من مـشروع الدستـور الإسلامى وسلمتـه صورة منهـا، وهنا توقـف القلـم عـن استـكمـال التـعليق والدراسـة لمشـروع الأزهر للدسـتـور الإسلامى . . . !! » [2].

– وتبقى المرحلة الثالثة من مراحل قصة ميلاد هذا الكتاب كما يعرض لها مؤلفه الداعية الكريم فيقول: « ذهبت معارا إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة عام (١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م) وبدأ الحنين إلى مـعـاودة الكـتـابة عن مـشـروع الدسـتـور الإسلامى فى وقت اشتدت فيه حملات العلمانيين وفلول الماركسيين وضحايا الفكر الدخيل، ويسر الله الأمور وأعان ووفق واتسع البحث، واحتد التعليق وسال القلم، وكانت خاتمة الكتاب فى ذى القعدة (١٤١٥ هـ) الموافق إبريل (١٩٩٥) واستوعبت الدراسة مشروع الدستور الإسلامى فى أبوابه التسعة، ومواده الثلاث والتسعين » [3].

● وقد عالج داعيتنا البحاثة مواد مشروع الدستور الإسلامى فى تسعة

---

(١) السابق ص ٤ (٢) السابق ص ٥ . (٣) السابق : ص ٥

أبواب وثلاث وتسعين مادة مشتملة فى خطوطها العريضة (الأمة الإسلامية) فى أربع مواد و(أسس المجتمع الإسلامى) فى ثلاث عشرة مادة و(الاقتصاد الإسلامى) فى عشر مواد (والحقوق والحريات الفردية) فى ست عشرة مادة و(الإمام) فى سبع عشرة مادة و(القضاء) فى اثنتين وعشرين مادة و(الشورى والرقابة وسن القوانين) فى مادتين و(الحكومة) فى مادتين، و(أحكام عامة وانتقالية) فى سبع مواد.

– وقد جاء أسلوب الكاتب فى كتابه القيم مشرق العبارة واضح الفكرة مركز الدلالة كما هو الشأن فى أسلوب الدعاة المربين، ويختم هذا الكتاب بدعوة يُوجهها إلى عقول وقلوب أبناء الأمة لتدارك الخطر ،والسير على الجادة للخروج من المأزق والاضطلاع بدور خير أمة أخرجت للناس فى هداية البشرية والشهادة على الناس فيقول، «إننا نناشد الأمة فى عقلها وقلبها، فى شبابها وشيوخها، فى رجالها ونسائها، فى حكامها ومحكوميها، فى علمائها وفقهائها وحكمائها أن يجتمعوا حول كلمة سواء، تعرف لله قدسيته، وللوطن حرمته وللناس كرامتهم، وللحياة أمنها وللأمة حضارتها، وللعالم كله السلام والتعاون.

«والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون».

«والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم».

– وبعد : فجزى الله داعيتنا المبارك مؤلف الكتاب خير الجزاء وبارك فى جهاده وجهوده ونفع الأمة بعلمه وأعزه بالإسلام.

* * *